صقلية العربية

ملتقى ثقافات عظيمة

اتجهت انظار العالم الى صقلية لترى كيف يبدأ غزو الخلفاء لقلعة أوربا . وأصبح اسم هذه الجزيرة ملء الافواه والاسماع ، ويكتب بالخط العريض على صدور الجرائد بمختلف اللغات . صقلية ! كم ناطق باسمها لا يدري اي حنين يثيره هذا الاسم في قلوب الشرقيين . . . فلنا بها تاريخ وأي تاريخ ! وان قلوبنا لتملأها الفخر والاسى معاً اذا استعرضنا فيما يلي موجزاً لحكم العرب لهذه الجزيرة وللثقافة العربية التي تركت بها طابعها الذي لا يمحى

* * *

يمثل فتح صقلية أقصى ما وصلت اليه موجة الفتح العربي للاندلس وأوربا . وكان معاوية بن أبي سفيان أول من أوفد الجيوش لمواجهة الجزيرة في سنة ٦٥٢ م وهي السنة التي سحق فيها الاسطول البيزنطي تجاه الاسكندرية وانتقلت السيادة في البحر المتوسط الى العرب . ولكن الغزاة لم يثبتوا أقدامهم بالجزيرة واكتفوا بالمغانم والاسلاب الثمينة التي عادوا بها من سرقسه — المياه العظيم الواقع على الشاطىء الشرقي من صقلية

وفي خلال القرن الثامن واصل فرائصة العرب والبربر من الاندلس وشمال افريقيا حملاتهم على جزر صقلية وسردينيا وكورسيكا . غير ان هذه الحملات لم تكن إلاّ غزوات مفاجئة وقتية لا تدبر طبقاً لخطة موضوعة أو لغرض مرسوم . ثم تغيرت الامور بقيام أسرة الاغالبة العربية في القيروان في أوائل القرن التاسع إذ كان لا مفرّ من سقوط صقلية في أيديهم عاجلاً أو آجلاً . وقد سنحت لهم فرصة الغزو في سنة ٨٢٧ عندما ثارت سرقسه في وجه الحاكم البيزنطي واستنجدت بالاغالبة فأسرع زيادة الله الاول (٨١٧ — ٣٨) ثالث ملوكهم بارسال أسطوله الضخم المكوّن من سبعين سفينة تحمل ما يقرب من عشرة آلاف مقاتل من المشاة وسبعمائة من الفرسان تحت قيادة وزيره وقاضي قضاته « أسد بن الفرات » وكان شيخاً قارب السبعين من عمره ونزل الجيش في الركن الغربي الجنوبي من الجزيرة واتجه

شرقاً نحو سرقسة (ومن الممتع مقارنة خطة الأغالبة بخطة الحلفاء في الحرب الحالية) وسقطت بلرم Palermo في سنة ٨٣١ ومسينا في ٨٤٣ وسرقسة في سنة ٨٧٨ ، بعد حصار دام تسعة أشهر . ولكن غزو الجزيرة لم يتم إلاّ على يد السفاح الأغلبي ابراهيم الثاني (٨٧٤ — ٩٠٢) الذي نزل بصقلية ودمّر تاورمينا ، ثم مات ودفن بالجزيرة في سنة ٩٠٢ . وهكذا أصبحت صقلية عربية . واستمرت تحت حكم العرب قرنين كاملين يتناوب الأمر فيها امراء دبّ بينهم النزاع والشقاق ومنها تطرّفوا حيناً ما الى جنوب ايطاليا وحكموه ولهم فيه آثار

وعند ما اندثرت أسرة الأغالبة دخلت صقلية تحت حكم الدولة الفاطمية الفتية ولعلّ المنازعات الطائفية هي التي دفعت بمعلي صقلية بعد اربع سنوات من الحكم الفاطمي الى الثورة تحت قيادة « احمد بن قرهب » واعلان استقلالهم ودعوا في صلاة الجمعة للخليفة العباسي المقتدر عدوّ الفاطميين . وفي سنة ٩١٧ تخلى الجنود المغاربة عن احمد فتمكن الفاطميون من القبض عليه وقتله ، وبذلك عادت صقلية الى حكم الفاطميين

وقد اتخذ الفاطميون صقلية قاعدة يشن منها أسطولهم القويّ حملاته على الساحل الايطالي حتى جنوى التي غزوها سنة ٩٣٤ وغنموا مغانم كثيرة

وكانت الحالة الداخلية في صقلية بعيدة عن الاستقرار . الشعب منقسم طائفتين — العنصر الاندلسي والعنصر الافريقي — لا ينفك بينهما النزاع قائماً . ومما كان يزيده تعقيداً تلك الخصومة القديمة المتوارثة بين الجنسين (وهم من جنوب شبه جزيرة العرب) والكلبيين (وهم من شمال الجزيرة)

وفي سنة ٩٤٨ عين المنصور ثالث خلفاء الفاطميين الحسن بن علي بن ابي الحسين الكلبي حاكماً على صقلية (حوالي سنة ٩٦٥ م) فوضع الحسن أساساً لامارة مستقرة شبه مستقلة . وفي عهده وعهد خلفائه بدأت بذور الثقافة العربية تنتج ثمارها في تلك الجزيرة المتعددة الالسن المختلفة الاجناس . وبلغت الحضارة العربية أوجها في الجزيرة في عهد ابي الفتوح يوسف بن عبد الله (٩٨٦ — ٩٨) أحد أحفاد الحسن

وكان الامراء الكلبيون يعيشون في قصور باذخة في بلرم الزاهرة عاصمة امارتهم . وكان بلاطهم عامراً بأهل العلم والادب . وقد وجد السائح الشرقي ابن حوقل (٩٤٣ — ٧٧) في بلرم أكثر من مائة وخمسين محلاً للحزارة وحوالي ثلاثمائة مسجد وعدّ ايضاً أكثر من ثلاثمائة معلّم في المكاتب العامة ولاحظ ان أهل المدينة كان يخصّهم محل الاحترام والاجلال ويعدونهم أتقى أهل المدينة وأفضلهم وذلك « رغماً عما هو معلوم عن معلمي المكاتب من الفرق وقلة العقل »

وقد زالت أمارة الكلبيين بسبب الفتن والحروب الداخلية وعاد البيزنطيون الى الجزيرة غير انهم لم يتمتعوا بها طويلاً ، فقد لحقهم النورمنديون واستولوا على صقلية في ١٠٩١

* * *

وتحت حكم النورمنديين ازدهرت في الجزيرة ثقافة مسيحية اسلامية ، ترجع أصولها الى الشرق والى اليونان والرومان . ومع أن الكونت روجر فاتح الجزيرة النورمندي كان مسيحيًّا غير متعصب إلاّ انه اتخذ معظم جنده من المسلمين وشجع العلوم العربية وأحاط نفسه بالعلماء المسلمين من فلاسفة وفلكيين وأطباء . وكفل لغير المسلمين حرية العبادة واقامة الطقوس الدينية . بل انه حافظ على الاداة الحكومية كما وجدها وأبقى كبار الموظفين المسلمين في مناصبهم . وكان الطابع الذي يتسم به بلاطه طابعاً شرقيًّا أكثر منه غربيًّا . وبذلك استمرت صقلية قرناً كاملاً في صورة فذة لدولة مسيحية يشغل المسلمون أكبر مناصبها. وفي هذا القرن ظلت مقاليد تجارة الجزيرة على الأكثر في أيدي المسلمين، كما كان الفضل في ازدهار الزراعة بها راجعاً الى خبرة الفلاحين المسلمين . وقد أدخل العرب في الجزيرة زراعة قصب السكر والكتان والزيتون وغيرها . وكان نبات البرديّ الذي لم يرَ له ابن حوقل نظيراً إلاّ في مصر يزرع بوفرة لم تعهدها الجزيرة من قبل . وقد زار ابن جبير صقلية في سنة ١١٨٤ فاستوقفت نظره خصوبتها وكثرة مواردها ووفرة دوالي العنب وغيره من الفواكه

***

وقد بلغ الطيب الى العرب ذروته في عهد روجر الثاني (١١٣٠ — ٥٤) وفي عهد فردريك الثاني

ولو بُعث العالم روجر الثاني لوجدناه يرتدي ثياباً كثياب المسلمين ورداؤه مزخرف بحروف عربية . وكان حصومه يلقبونه بالملك نصف الكافر . وفي عهد حفيده وليم الثاني (١١٦٦—٨٩) رأى ابن جبير نساء بلرم المسيحيات مرتديات ملابس المسلمات ومما لا شك فيه ان مهرة العمال والصناع العرب استخدموا في بناء الابنية الهامة في صقلية . كما ان امراء البحر العرب هم الذين أشرفوا على بناء اسطول روجر وهو الذي اصبحت صقلية بفضله أقوى دولة بحرية في البحر المتوسط

ولكن أمع جوهرة في تاج روجر الثاني كانت شخصية الادريسي اشهر جغرافي العصور الوسطى . وقد كتب الادريسي مؤلفاته النفيسة في بلرم تحت رعاية روجر الثاني. وكتابه المسمى « نزهة المشتاق في اختراق الآفاق » لا يلخص مؤلفات اقليدس وبطليموس وسعودي فحسب بل يتضمن في كثير من تقاريره تعديلاً دوّنه رجال تدوا للسفر الى ارض مختلفة

لجمع المعلومات . ولم يكتف الادريسي بهذا المؤلف العظيم بل قدم الى روجر كرة سماوية وخارطة للكرة على شكل قرص . وكلاهما من الفضة الخالصة

وكذلك كان بلاط فردريك الثاني عامراً بالعلماء من الشام وبغداد . واظهر اهتمامه بالعالم الاسلامي فسعى في انشاء علاقات سياسية وتجارية مع الدول الاسلامية . ولا سيما مع الملك الكامل الايوبي في مصر . وقد أرسل اليه الملك الاشرف من الشام قبة تمثل فيها الكواكب السيارة Planetarium مع صور في الشمس والقمر وقد بين عليها بالساعات مواعيد دورانها . وتحدى فردريك الثاني الملك الكامل وغيره من ملوك المسلمين في حلّ بعض المسائل الرياضية والدينية العويصة كما ارسلها الى ابن سبعين (أبو محمد عبد الحق بن سبعين ١٢١٧—٧٩) العالم المتصوف الاندلسي الذي كان يلقب بقطب الدين . وقد حلّ علماء مصر والشام المسائل الرياضية والفلكية وأجاب ابن سبعين على المسائل الفلسفية واللاهوتية في رسائل سماها « الاجوبة على الاسئلة الصقلية » وأبى اخذ الجائزة التي عرضها فردريك عليه

واستقدم فردريك مهرة مدربي الصقور للصيد . وكلّف مترجمه تيودور الانطاكي ترجمة كتاب من العربية عن الصيد بالصقور وجعل هذا الكتاب مع كتاب آخر نُقل له عن الفارسية اساساً لتأليف كتابه الكبير عن الصقور والاستعانة بها في الصيد . ويعد هذا الكتاب اول مؤلف حديث في التاريخ الطبيعي . وكذلك ترجمت في عهده مؤلفات ارسطو في علوم الحياة وكتابه في الحيوان مع تعليقات ابن سينا عليه . واول جامعة علمية مستقلة الكيان في اوربا هي الجامعة التي أسسها فردريك الثاني في نابولي سنة ١٢٢٧ ولعلها أخذت آثاره . وقد أودع في مكتبة هذه الجامعة مجموعة كبيرة من الكتب العربية وكان من ضمن المناهج فيها دراسة ارسطو وابن رشد . وأرسلت الجامعة نسخاً من تراجم مؤلفاتهما الى جامعتي باريس وكولونيا . فليس من المبالغة اذن في شيء اذا ارجعنا النهضة الايطالية الى هذه الروح العلمية في البحث والتنقيب وهي التي تجلت في بلاط هذا الامير المثقف

واذا استعرضنا تاريخ صقلية في ذلك العهد وتدبرنا ازدواج ثقافتها وموقعها الفريد بين الشرق والغرب خيل الينا ان القدر قد رسم هذه الجزيرة في البحر المتوسط كالبوتقة تلتقي فيها مختلف التيارات الفكرية ويشع منها ضياء العلوم . كان يعيش بها جنباً الى جنب عنصر يوناني يتكلم اليونانية وعنصر اسلامي يتكلم العربية وجمع غفير من العلماء يتقنون اللاتينية وكانت هذه اللغات الثلاث شائعة الاستعمال في السجلات الحكومية وتصدر بها المراسيم كما كان التخاطب بها شائعاً بين سكان مدينة بلرم المتعددة الالسن

وفي صقلية ترجم كتاب المجسطي اول ما ترجم الى اللاتينية من اليونانية رأساً . وترجم اوجين الصقلي الذي كان يدعى « الامير » والذي عاش في ابان حكم روجر الثاني وخلفه وليم الاول كتاب « البصريات » المنسوب الى بطليموس من العربية الى اللاتينية . كما اشترك أيضاً في ترجمة كتاب « كليلة ودمنة »

واشترك يهود صقلية في نقل الكتب من العربية الى اللاتينية . فمؤلف الرازي الضخم في العلوم الطبية ترجمه الى اللاتينية الطبيب اليهودي فرج بن سليم ونقلت عنه نسخ متعددة شاع استعمالها في القرون التالية . وبعض هذه الكتب ترجم مرة أخرى ترجمة أدق وأضبط في طليطلة بالاندلس . إلاّ أن مشاركة صقلية في حركة الترجمة كانت في المحل الاول من عظم الشأن إذ أن أمراء صقلية من النورمنديين كانوا يحتلون أيضاً الجزء الجنوبي من ايطاليا فساعد ذلك على انشاء جسر انتقلت عليه الثقافة العربية الى شبه الجزيرة الايطالية وأوربا الوسطى . وهذا التسرب واضح في محيط الفن أيضاً وضوحه في محيط العلوم والآداب

فالأذنة المربعة التي كانت شائعة في شمال افريقيا ومصر ألهمت الطراز الذي بنيت عليه أبراج الاجراس Campanile في الكنائس التي ترجع الى عهد النهضة الايطالية . وحتى بعد ان عادت صقلية الى حكم المسيحية بوقت طويل ظلّ الصنّاع والفنانون المسلمون محتفظين بشهرتهم ورواج صناعاتهم . ومصنع النسيج الشهير الذي أسسهُ ملوك المسلمين في بلرم ظلّ يموّن ملوك اوربا بأرديتهم الملوكية المزركشة بالعبارات العربية . وفي اوائل القرن الثالث عشر أصبحت صناعة نسيج الحرير أولى الصناعات في عدة مدن ايطالية وأخذت هذه المدن تصدّر الى نواحي اوربا المختلفة منسوجات كل مزيتها انها تقلد منسوجات صقلية

وكان التهافت على الاقمشة الشرقية كبيراً حتى ان الاوربي المتأنق لم يكن يعد نفسه حسن الملبس إلاّ اذا امتلك رداءً شرقيًّا واحداً على الاقل

والخلاصة ان صقلية كانت للثقافة الاسلامية الى أوربا تأتي في المنزلة بعد الاندلس مباشرة وتسبق الشام ابان الحروب الصليبية

(هذا المقال مستمد من كتاب فيليب حتي « تاريخ العرب »)

في التاريخ فترات كثيرة غلب عليها الخير ، وأخرى غلب عليها الشرّ . ولكن فترة واحدة منها لم تدم . ومن سوء حظنا اننا نعيش في فترة يغلب الشرُّ عليها . ولكنها الى أمد وستنتهي . ولا ريب في ان أمدها يقصر بقدر ما يبذلهُ كل فرد في سبيل الخير

(برتراند رسل)